

مدلول مصطلح نزعة استيطانية (colonisation) عبر مشتقاته المعجمية الغربية ومفارقات
الترجمات العربية: معجم عبد النور الحديث أنموذجا

The significance of the term colonialism through its Western lexical variants and the
paradoxes of Arabic translations: Abd al-Nur's modern dictionary as a model

د.مرزوقي بدر الدين جامعة وهران 01 (الجزائر)

مدير مخبر تحليل وتصميم النماذج الاعلامية في التاريخ، الاجتماع، الاقتصاد والسياسة

merzouguibadr.31000@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/06/23

تاريخ القبول: 2021/06/08

تاريخ الاستلام: 2021/05/31

ملخص:

في الواقع، لقد اعتمدنا في هذه المقاربة النقدية ترجمة مصطلح colonisation الفرنسي بما يرادفه في اللغة العربية انطلاقا من مدلوله الأجنبي لا العربي نظرا لابتعاد الترجمة العربية عن المعنى الموضوعي الأجنبي، ومن ثم جاءت الترجمة العربية المقارنة بالمعنى الأصلي الأجنبي منسجمة مع سياق المدلول الأجنبي الذي أغفلته الترجمات العربية في المكان والزمان، مما جعلها تقع وتوقع غيرها في انزلاقات منهجية و إيديولوجية، لمسنا آثارها في كتابات معظم كبار المفكرين والباحثين في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، الأمر الذي دفعنا إلى تبني مقاربة تحليلية نقدية تأصيلية للمصطلح المعني بالدراسة ومشتقاته الدلالية اللغوية كمشروع علمي ومعرفي قد يفتح آفاقا تستوعب الكثير من المفاهيم والمصطلحات المعجمية في إطار عالميتنا وخصوصياتنا الثقافية و الحضارية تجاه مختلف تحديات العولمة الإعلامية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: استيطان، نزعة استيطانية، قابلية الخضوع للاستيطان، استعمار، استخلاف، العدوان، الاستكبار، مقاصد الشريعة الاسلامية.

Abstract:

In fact, we adopted in this critical approach the translation of the term French colonization with what is equivalent to it in the Arabic language from its foreign, not Arab, connotation due to the distancing of the Arabic translation from the foreign objective meaning, and then the comparative Arabic translation in the foreign original meaning came in harmony with the context of the foreign connotation which the translations neglected Arabic in place and time,

which made it fall and expect others in systematic and ideological slippages, we felt its effects in the writings of most of the great thinkers and researchers in the humanities and social sciences, which prompted us to adopt a fundamental analytical and analytical approach to the term concerned with the study and its semantic linguistic derivatives as a scientific and knowledge project that has It opens up horizons that accommodate many lexical concepts and terminology within the framework of our universality and our cultural and civilizational specifics towards the various challenges of media and cultural globalization

Key words: settlement, settlement tendency, susceptibility to settlement, colonization, defiance, attack, arrogance, intentions of Islamic law.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

لقد كان الاستيطان مرتبطا بشكل دائم بسباقات تاريخية معينة، سواء أكانت هذه العهود قديمة كالتوسع الاستيطاني الإغريقي، الروماني والفينيقي حيث نشأت بالنتيجة مناطق نفوذ، أو مستوطنات تابعة للمركز رغم قربها أو بعدها عنه، أو عهود حديثة كالتوسع الاستيطاني البريطاني، الأسباني والفرنسي حيث اكتشف منظرو التوسع الاستيطاني في الغرب بعض الاختلافات الإيديولوجية على مستوى المذاهب الاستيطانية (Les doctrines coloniales)، ففي تاريخنا الحديث اشتهرت الإمبراطورية الإسبانية والبرتغالية والفرنسية باستيطانهم المباشر للأقاليم غير الأوروبية، في حين عرفت بريطانيا العظمى باستيطانها غير المباشر، زاعمين أن هذا النمط الأخير أقل ضررا وتعسفا من الأول (Larousse , Paris, 1979 , p. 50). من أشهر منظري التوسع الاستيطاني الأوروبي هو رجل الدولة الفرنسي أنتوان دي مونكريتيان (Antoine De Monchretien) (1575 – 1621) فقد توصل من خلال بحوثه التاريخية المقارنة لمختلف المذاهب الاستيطانية السائدة ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى تطوير مصطلح "الاستيطان المركنتيلي والاستعبادي" (AFROUN Mahrez, 2008) كظاهرة سياسية اقتصادية مرتبطة بالرسالة التحضيرية للغرب تجاه البرابرة، أي الشعوب غير الأوروبية.

في الواقع، لقد لعبت الاكتشافات الجغرافية والعسكرية أو بكلمة أدق، الجغرافيا السياسية في هذا الإطار الإيديولوجي دورا حيويا في عملية تجسيد الأطماع الغربية في الأقاليم غير الأوروبية، وهذا ليس فقط عبر الحروب الاستيطانية، أي ترشيد العمليات العسكرية بل وأيضا عبر عملية التعرف على التضاريس المختلفة، وعادات وتقاليدها وأسلوب حياة سكانها الأصليين، ومن ثم تكييف الاستراتيجيات والسياسات الثقافية والعسكرية بهدف ضبط أكثر فعالية لسكان الأقاليم الخاضعة أو التي ستخضع للسلطة المركزية إن آجلا أم عاجلا. (LACOSTE Yves 1976, P7)

2. المقاربة المعجمية لمصطلح استيطان (colonisation) ومشتقاته الأجنبية:

1.2 مصطلح الاستيطان: (La colonisation) هو فعل أو مجموعة أفعال (Ensemble d'actions)، كما تفيد أيضا وجود عملية أو مجموعة عمليات (Ensemble de processus) ناتجة، أي تتمظهر في كلمات (Des mots)، أفعال (Des actions) وصفات (Des attributs)، متفرعة عن مصطلح "استيطان" باعتباره عملية ونتيجة تتمظهر في استيلاء على سيادة إقليم من الأقاليم يؤدي إلى خلق تبعية للمستوطن على الصعيد السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي. ومن أبرر مشتقات مصطلح استيطان هي كالتالي:

2.2 نزعة استيطانية (colonialisme): (AFROUN Mahrez, 2007, -p48-50)

وهي تفيد معنيين مترابطين هما:

- أ - الفعل الاستيطاني: أي الاستيطان أو استغلال المستوطنات.
 - ب - الإيديولوجيا أو العقيدة أو المذهب المبرر لهذا الفعل المرتكز على خلفية التفوق العرقي، الديني، السياسي، التكنولوجي، الاجتماعي، الثقافي والحضاري.
- باختصار، إن النزعة الاستيطانية، عقيدة أو مذهب، تم تطويره لتبرير الاستيطان وتأكيد مشروعيتها بتمجيدها والدفاع عنها في المكان والزمان.

ثانيا - فعل استوطن (Le verbe coloniser): هو فعل من المجموعة الأولى (1^{er} groupe) ومعناه اجتاحت إقليما أو بلدا ما بهدف احتلاله ثم استيطانه من طرف جماعة أو جماعات اصطلاح على تسميتها بالمستوطنين (Les colons).

ثالثا- مستوطنة (colonie): لفظة مصدرها اللاتيني كولونيا (colonia) ومنه مفهوم كولونا (colonat) الذي تولد عنه مصطلح كولوني (colonie)، ومن ثم ظهر مصطلح عقيدة أو مذهب استيطاني

(Doctrin coloniale)، ويطلق مصطلح مستوطنة للدلالة على إقليم أو بلد محتاح ومسيطر عليه من قبل دولة أو أمة أجنبية تابع لها في المكان والزمان من الناحية السياسية، الاقتصادية والثقافية، كما يدل المصطلح على جالية من المنفيين الذين يقيمون في بلد غير بلدهم الأصلي، وقد يدل المصطلح أيضا على معسكر أو مخيم صيفي يقام إبان العطل (colonie de vacance) (AFROUN Mahrez, Op.).
Cit.,p.75

رابعا - ذو نزعة استيطانية (colonisateur): هو توصيف ل "ممارسة الفعل الاستيطاني" وقد يتجلى في عدة صور ووضعيات تتمثل فيما يلي:

- أ- الحكومة التي تعبر عن إرادتها في استيطان إقليم أو بلد ما .
- ب - قادة، زعماء سياسيون، عسكريون و جنود يخوضون حربا استيطانية.
- ج - كنسيون، مرشدون ومستخدمون مدنيون، موالون، يرافقون جيشهم الاستيطاني، ويبررون خطابه السياسية وتوسعاته العسكرية.
- د - سياسيون، أحزاب ووسائل إعلام واتصال جماهيري، متواجدون في مستوطنات أو بلد الأم (La métropole).

هـ - مدراء البنوك والمرابين، موظفون في المصالح الإدارية وفي أجهزة العدالة، بل وكل شخص حقيقي (p.physique) أو معنوي (p.morale)، يساند الاستيطان عبر تدعيم وتقوية النظام أو النسق الاستيطاني.

و- وأخيرا وليس آخرا، جمعيات خيرية، ثقافية، دينية، رياضية، فنية، علمية، تنمو برعاية ذلك النظام أو ذلك النسق الاستيطاني وتعمل على نشر وتبرير أخلاقياته ومثله بل وتأكيد مشروعيته الثقافية والحضارية في المكان والزمان.

خامسا- خاضع للاستيطان (colonisé): لفظة تعني صفة الشخص الذي يعيش في وضعية سياسية وقانونية واجتماعية دونية، مفروضة عليه من طرف الإدارة الاستيطانية حيث يوصف السكان

الأصليون الرازحون تحت هذه الإدارية بالأهالي (AFROUN Les autoctones ou les indigènes).
Mahrez, Op. Cit., 76.)

سادسا- قابلية الخضوع للاستيطان (colonisabilité): وتطلق على فرد أو جماعة أو عشيرة أو مجتمع يمكن أن يتقبل بعضه أو معظمه الخضوع للاستيطان، أي يرضوا بالعيش تحت النزعة الاستيطانية (le colonialisme) دون أن ينتفضوا أو يثوروا خوفا من عقاب مادي أو معنوي، أو طمعا في نيل حظوظ مادية وأدبية لدى المستوطنين أو الإدارة الاستيطانية. (AFROUN Mahrez, 2008, Op.Cit., pp76-77,

3. بعض مفارقات الترجمات العربية:

لقد اتضح مما سبق، أن مختلف الاشتقاقات اللغوية الواردة في بعض أبرز القواميس والمعاجم الانسانية والاجتماعية الأجنبية على سبيل المثال لا الحصر، رغم تباين مقارباتها العلمية والمعرفية، تجمع على أن مصطلح "كولونياليزم" بالمعنى الفرنسي (colonialisme) أو الإنكليزي (colonialism) يرادف: التوسع العسكري، التحكم، الهيمنة، الإخضاع العسكري، استغلال ثروات الإقليم أو البلد المحتل، غرس مؤسسات تزكي وتبرر مختلف أنواع الهيمنة بالترغيب أو بالترهيب، خلق تبعية سياسية، اقتصادية، ثقافية بل وحتى تلك المفاهيم التوضيحية المعاصرة التي تبنتها بعض القواميس والمعاجم الفرنسية على سبيل المثال كمفهوم "قابلية الخضوع للاستيطان" (colonisable/colonisabilité)، أي تقبل الخضوع والرضى بالعيش تحت وطأة نزعة استيطانية أجنبية كأمر واقع باسم القضاء والقدر (Le fatalisme) أو بدافع من رغبة ورهبة. أما الترجمة العربية للمصطلح الفرنسي (colonialisme) أو الإنكليزي (colonialism) فقد تبين لنا بعد التحليل اللغوي والسياقي المقارن، أنها بعيدة كل البعد عن المعنى الأصلي الأجنبي، وهنا تكمن المفارقة في عملية الترجمة العربية المعجمية ومن ثم استخداماتها الإنسانية والاجتماعية المضللة، خاصة عندما يتبناها باحث أو باحثين يدعون التخصص، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نكتشف بعد تحليل نقدي مقارن مع المصطلح الفرنسي أو الإنكليزي الحديث أن "معجم عبد النور الحديث" الشهير لصاحبه المتخصص في ترجمة المصطلحات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية إلى العربية ألا وهو الأستاذ اللبناني جبور عبد النور، يشكل إحدى هذه المفارقات وعلى أكثر من صعيد. سنلخص ما جاء في مقدمته من جهود علمية ومنهجية بذلها في سبيل سد ذلك الفراغ الكبير لدى أصحاب الثقافتين العربية والفرنسية حيث نوه بها العديد من أعلام

الترجمة في الداخل والخارج واعتبرها نقلة نوعية (أكثردقة) مقارنة مع سابقتها حيث يمكن إيجاز معالمها كما أوردها الأستاذ جبور عبد النور في مقدمة المعجم في النقاط التالية:

1 - إنفاقه عشر سنوات من الكد والجهد الأكاديمي المتواصل في سبيل ضبطه وإخراجه في شكله النهائي .

2 - اعتماده على القواميس والمعاجم الشائعة الحديثة مثل " الرائد " لجبران مسعود، " معجم لاروس " لخليل الجر، " المنجد الأبجدي " للآباء اليسوعيين، " المعتمد " لجورجي عطية، " المنجد في اللغة " للويس معلوف وأخيرا وليس آخرا، " المرجع " لعبد الله العلايلي، هذا مع إثارة ل " الرائد " بصفة خاصة نظرا لانسجام مفرداته مع فكرة التبسيط (البيداغوجية) .

3- تدقيقه في المفردات الواردة في معجمه (معجم عبد النور الحديث) بالعودة إلى المصادر الأصلية العربية مثل "لسان العرب" لابن منظور و"تاج العروس من شرح جواهر القاموس" للزبيدي، و"أساس البلاغة" للزمخشري و"القاموس المحيط" للفيروز أبادي وغيرها من المصادر التراثية المختلفة نظرا لأهميتها الثقافية والحضارية.

4- إقراره أنه بفضل هذه المصادر والمراجع كلها جاء المتن العربي ويقصد "معجمه الحديث" شاملا حيث جمع أقدم المصطلحات شيوعا في المصنفات الشعرية والنثرية الراقية في القرون الغابرة (التراث العربي الإسلامي القديم)، وأحدث ما هورائج في مقالات الصحفيين، ومؤلفات المعاصرين، إذ تكاد تتلاقى في أعمدته مآثورات الماضي، ومبتكرات المنشئين، ورجال الاختصاص المحدثين.

5 - تأكيده على أن "معجمه الحديث" الذي يقع في ألف ومائة وست وعشرين صفحة من الحجم الكبير، ورغم تسلسله من "معجمه الوسيط" إلا أنه فيه توفيق للاقتصاد في المفردات البائدة أو الغريبة أو النادرة الشيع، وتخفيف من الألفاظ المغالية في التقنيات وجزيئات العلوم الوضعية، ومن ثم جاء مستوفي على العموم متطلبات العصر، أي سهل الاستعمال منهجيا، مع إحاطته بمبادئ المعارف العصرية.

6 - تنويهه بأن هذه السلسلة من المعاجم المصنفة من قبله تؤلف من الناحية البيداغوجية وحدة متكاملة لكل من يرغب في اجتياز مراحل التوافق بين العربية والفرنسية بهدف الانتقال من الطور التمهيدي إلى ما يوازي المستوى الجامعي والبحثي التخصصي.

7 - أخيراً وليس آخراً، اعترافه وتقديره لزوجته المتخصصة وبعض الأصدقاء من اللغويين على مساعداتهم في عملية مراجعة التجارب الطباعية، والتدقيق فيها حيث يتبدى فيه للمطالع - بغض النظر عن تخصصه - مدى وفرة المفاهيم العلمية الوضعية التي أقدم اللغويون على توليدها بمختلف الأساليب المعترف بها في المؤسسات المختصة. (جبور عبد النور، ب. ت.، ص 5 - 9).

في الواقع، نحن لا نشك في مثل هذه المجهودات العلمية والمعرفية الإيجابية المبذولة من قبل الأستاذ جبور عبد النور رفقة زوجته ومساعديه، خدمة للباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، خاصة على مستوى ترجمة المفاهيم والمصطلحات من العربية إلى الفرنسية والعكس، فمثل هذه المبادرات تكتنفها العديد من الصعوبات والتعقيدات في عملية ترجمة مفاهيم أو مصطلحات، هي بامتياز، تنتمي إلى مرجعيات ثقافية وحضارية مختلفة، ومع ذلك، يبقى النقد العلمي البناء حياً بمراجعته الدؤوبة وباقتراحاته الاستيمولوجية، نراه - بصفة مباشرة أو غير مباشرة - كفيلاً بالمساهمة حاضراً ومستقبلاً في عملية تحفيز المزيد من اليقظة الاستيمولوجية الأصيلة والمبدعة، سواء من حيث الاستيعاب المعرفي للفكر الغربي أو من حيث التأصيل المنهجي، الثقافي والحضاري للكثير من المفاهيم والمصطلحات العربية أو الأجنبية، في عملية تفعيل حركة الترجمة اللغوية والتقنية أكثر فأكثر عبر المجاميع والمؤسسات العربية والإسلامية المختصة.

في هذا الإطار المنهجي التأصيلي، تأتي مساهمتنا المتواضعة المتمثلة في إبراز بعض الأخطاء أو المفارقات التي وقع فيها الأستاذ جبور عبد النور في معجمه والتي سبقه إليها العديد من المترجمين و الباحثين في العلوم الانسانية والاجتماعية. سننتقي كعينة في بحثنا هذا مصطلح أجنبي فرنسي شهير شاعت ترجمته إلى العربية خطأ فصارت مفارقة علمية ومعرفية في الأوساط الأكاديمية العربية والإسلامية ألا وهو مصطلح (colonisation) بمشتقاته والذي ترجم إلى مصطلح "استعمار" سواء من حيث المصدر الأجنبي أو مشتقاته الإسمية والفعلية في سلسلة معاجم عبد النور وفي غيره من القواميس والمعاجم الحديثة والمعاصرة وسواء أكان ذلك بصفة شعورية أو لا شعورية. لقد ورد في المعجم الحديث للأستاذ جبور عبد النور ترجمة المصطلح المذكور أعلاه وتحديداً في الصفحة الثانية والثمانين (نقلناها حرفياً) على النحو التالي: (جبور عبد النور، المصدر نفسه، ص 82).

- استعمار - Colonisation

- مقاومة الاستعمار - Anticolonialisme

- استعماري - Colonial

- استعماري Colonialiste
- توسع استعماري Colonialisme, Impérialisme
- استعماري Colonialisme, Impérialisme
- استعمار (عمر)، مكانا Habiter un lieu
- استعمار بلدا Coloniser un pays

4. التأصيل الإسلامي لكلمة "استعمار" ومشتقاتها:

لكن بالعودة إلى بعض أبرز المصادر التراثية اللغوية كلسان العرب لابن منظور، وتاج العروس في شرح جواهر القاموس للزبيدي، وأساس البلاغة للزمخشري وغيرها من القواميس والمعاجم الحديثة والمعاصرة، خاصة عند التدقيق في المفردة الواحدة في معجمه الحديث، نكتشف أن المعنى اللغوي العربي لمصطلح "استعمار" ومشتقاته، لا صلة له إطلاقا بالمعنى الأجنبي "Colonialisme" أو بمشتقاته. لقد وردت الكلمة العربية بمشتقاتها في بعض هذه المصادر والمراجع العربية القديمة والحديثة الشهيرة على النحو التالي:

-عَمَّرَ وأَمَّرَ المنزل: جعله أهلا. أَعَمَّرَهُ أرضا: جعلها له طول عمره.
-أَمَّرَ الرجل: عاش زمانا طويلا. أَعَمَّرَهُ الله: أَبْقَاه. أَمَّرَ الثوب: أَجَاد نَسِجَهُ أو غَزَلَهُ. أَمَّرَ المكان: جعله يعمره

-أَمَّرَ الأرض: وجدها عامرة. أَمَّرَ عليه: أَغْنَاه. اعْتَمَرَ المكان: قَصَدَهُ، زَارَهُ. اعْتَمَرَ الرجل: تَعَمَّمَ بِالْعِمَامَةِ.
-استعمره في المكان: جعله يعمره. العمر (بالفتح): جمعه أعمار: الحياة، الدين...ألخ. (البستاني، أفرام بطرس، 1987 ص 498).

كما تفيد أيضا معنى العبادة، فقد أبا الأعرابي "عَمَّرَ به: عبده، وإنه لعامر لربه، أي عابد. وحكى اللحياني عن الكسائي: تركته يعمربه، أي يعبد، يصلي ويصوم. (ابن منظور الإفريقي، ب، ت، ص 3101، جبور عبد النور، 1960، الجزء الثاني، ص 626-627).

لقد جاءت أيضا بنفس المعنى في تاج العروس وأساس البلاغة والقاموس المحيط وهذا على سبيل المثال لا الحصر واللافت للانتباه، أن كلمة "استعمار" وردت في القرآن الكريم بمعنيين متكاملين

أحدهما يفيد معنى "إعمار الأرض" أي استعمارها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (سورة هود / الآية 61).

وقوله تعالى أيضا: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾، أي وطلب منكم عمرانها وإحياءها بما تملكونه من طاقات الفكر وإمكانات العمل، للاستمرار في العيش، لأن لهذا الأخير شروطا، لا بد للإنسان من توفيرها وتحصيلها إذا وجه طاقاته نحوها بهدف إشباع حاجاته المادية والمعنوية، وهذا ما سخره الله للإنسان في ما أودعه في هذه الأرض من ثروات باطنية وظاهرية، وفيما خلق فيه من استعدادات فطرية ومكتسبة تحقق له مثل هذا الإشباع.

وقوله عز وجل أيضا: ﴿..أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. (سورة الروم / الآية 09).

﴿..وعمروها أكثر مما عمروها..﴾، أي بما كانوا يملكون من ثقافة عمرانية، وقدرة معمارية وهندسية، فقد كان منهم العمالقة والجبابرة وكان منهم الجماعات التي تملك أسباب الحضارة والتقدم والرفق وال عمران. كما يفيد المعنى الآخر "إعمار المساجد بالعبادة والذكر" مصداقا لقوله تعالى: ﴿..إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ..﴾ (سورة التوبة / الآية 18). ﴿..إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ..﴾، من العمارة أن يجدد ما استمر من الأبنية، ومنه اعتمر إذا زار، لأنه يجدد بالزيارة ما استمر من الجوامع والمساجد، والأصل في المساجد هو موضع السجود في العرف، ويعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه، كما في قوله عز وجل ﴿..أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ..﴾. (سورة التوبة / الآية 19).

نستنتج إذا من مفهوم "الاستعمار" أو "الإعمار" في المنظور القرآني وأثارهما المادية والمعنوية المتكاملة، أنه لا بد للإنسان المستخلف (بالفتح) من عيش الإحساس العميق بالارتباط بالله المستخلف (بالكسر) سبحانه وتعالى، عند استجابته لدعوة الأرض للارتباط بها، ليعرف بأن ارتباطه التكويني بالأرض من خلال قدرة الله تعالى، يفرض عليه الانفصال العملي عنها، عندما تقوده إلى التمرد على الله سبحانه وتعالى، أو عندما تثير فيه ميل الاستسلام للشهوات، بعيدا عن خط المبادئ، وحركة الرسالات، لأن الله سبحانه وتعالى، الذي خلق الأرض وخلق الإنسان منها، هو الذي يحكم في كل ما

يدور فيها، ويتحرك عليها، لأنه صاحب السلطة في ذلك كله، وهو العلم بالصلاح والفساد في جميع موارد. إن الله جل جلاله، ليس بعيدا عن دوافع المعصية في الإنسان، من شهوات وأهواء قد تغلبه من حين لآخر لأنه خالقه، وهو ليس بعيدا عن تطلعات الإنسان للمغفرة وطمعه في الرحمة، فهو قريب إلى روحه وفكره وشعوره وحياته، بحيث لا يوجد أقرب إليه منه، فيلجأ إليه بالاستغفار والتوبة النصوح لحل كل مشكلة ولإقالة كل زلة، ولتخفيف كل هم وغم وذلك هو الطريق المستقيم، ومن ثم يتبين أن لفظة "الاستعمار" أو "الإعمار" في مدلولها القرآني، تفيد طلب العمارة، والطلب من الله على سبيل الوجوب باعتبار أن مفهوم "الاستعمار"، يعكس جوهر حقيقة الاستخلاف (مفهوم الاستخلاف)، والمتمثل في ربط معنى العمارة الحسية بـ "العمارة الروحية" كون المقصد العام للشرعية الإسلامية هو تركية النفس، وعمارة الأرض وإصلاحها بها يحقق العبودية لله سبحانه وتعالى، وبهذا يتجلى الاتساق بين الفعل البشري والمقصد الإلهي من خلق الكون. (حسني غانم، 1984، ص 102).

لا ريب أن مفهوم الاستخلاف يعبر في بعض تجلياته العلمية والمعرفية (التحليلية النقدية) عن منظومة مفاهيمية مترابطة تحدد أبعاد عملية "استعمار الأرض" في علاقتها العضوية بمنهج الله سبحانه وتعالى تحقيقا لخلافته وسعيا لعبادته، فهي تنطلق من التوحيد (الوحي السماوي) كأساس وغاية مما يجعلها تتصف بمجموعة من الخصائص، تميزها عن غيرها من الأنساق تتلخص أبرز معالمها كما يلي:

1- التكامل بين المفاهيم: كونها تستند على التصور الإسلامي للكون في نظرتها الشمولية فهي تشكل وحدة عضوية ووظيفية متكاملة، يستدعي كل مفهوم فيها مفاهيم أخرى كأنها جسد واحد، يشد بعض أعضائه البعض الآخر، فمثلا نجد أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يستدعي جملة من المفاهيم تكمله بنيويا ووظيفيا كالاستخلاف، والاستعمار، والشورى، والصلاة، وإماطة الأذى، والصلح، والعدل وغيرها، وهذا في مواجهة منظومة المفاهيم الغربية.

2- التكامل داخل المفهوم ذاته: كون كل مفهوم من هذه المفاهيم الإسلامية المتكاملة بالإضافة إلى شموليته، يتمتع بخصوصية المعنى الوارد في السياق المراد له، فمثلا مفهوم الشورى أو العدل يعطي من المعاني والدلالات المختلفة والمتفاوتة على حسب السياق العام أو الخاص، فقد يتخذ مفهوم مثل الشورى معنى المشاركة في الحكم أو المشاورة داخل الجماعة أو حتى داخل الأسرة الصغيرة أو مع الذات (حوار داخلي) أحيانا.

3- مدى واقعية هذه المفاهيم: كونها تستمد حيويتها من مصدر مستقل عن الخبرة التاريخية أو الخبرة المعاشة، أي مصدرها لا يتغير ولا يتبدل حسب الأهواء والشهوات هذا في الوقت الذي تعتبر هذا الواقع البشري هو الذي يحفز عطاءها المستمر والمتجدد من خلال استجابات هذه المفاهيم المثالية الواقعية لتحدياته بما تنطوي عليه هذه المفاهيم من مرونة في التطبيق على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية، فالعبرة عند علماء الأصول، ترتبط بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. (سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، 1992، ص ص 247-304. محمد أمزيان، 1991، ص ص 301-323 و ص 399 - 406).

يتضح إذن أن كلمة "استعمار" في تراثنا العربي الإسلامي مفهوم يحمل دلالات الخير والنماء والتزكية والعبادة، هذا في الوقت الذي يظل اختيار كلمة "استعمار" كترجمة للكلمة الأجنبية colonialism(e) لا يخرج عن كونه عملية تشويه ثقافية و حضارية مقصودة لبعض المفاهيم العربية والقرآنية بالأخص التي يستهدف من ورائها تلبسها وتفرغها من مضامينها الأصلية ولو بعد حين، هذا ما قد سيسمح للمتأمرين في الداخل والخارج من نشر نوع من "الاستعمار" في نفسية بعض العرب والمسلمين، خاصة أولئك "المعقدين من الثقافة والحضارة الإسلامية اللذين يظنون أن هناك محاسن مادية ومعنوية متعددة "للاستعمار" (les bienfaits du colonialisme) في إطار "الرسالة التحضيرية للغرب" (la mission civilisatrice de l'occident) المنوطة به في المكان وفي الزمان.(شريعتي علي، 2004، ص 99-124).

لكن رغم هذا التشويه الثقافي والحضاري "الاستشراقي المعكوس" للتراث العربي الإسلامي، اجتهد العديد من المفكرين ورجال الدين المصلحين البارزين في سبيل استبدال لفظة "استعمار" في مدلولها الغربي بكلمة أو كلمات تعبر عن مصداق المفهوم الفرنسي أو الانكليزي كترجمة أصيلة لدلالته اللغوية والإيديولوجية. وفي هذا الإطار الإيديولوجي اقترح العلامة فتحي داريني استخدام لفظة "البغي" بديلا عن لفظة "استعمار" الأجنبية، و "البغي" يعني التعدي والاستطالة والعدول عن الحق ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ﴾. قال الفراء: "البغي" الاستطالة على الناس. وقال الأزهري "البغي": الظلم والقسوة وقصد الفساد. (داريني فتحي، ب.ت.، ص ص 217-219)، كما اقترح العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في كتابه "عيون البصائر" استعمال لفظ تخريب بدلا من لفظ "استعمار" إذ لا يصح في اللغة لفظ استخراب. (الإبراهيمي محمد البشير، ب.ت.، ص 581-582)، واقترح أيضا المفكر محمد حسين فضل

الله استخدام مفهوم "الاستكبار" بدلا من مفهوم "الاستعمار" كون الاستكبار لفظ قرآني، يعبر عن نفس مضامين كلمة البغي. (فضل الله محمد حسين، 1986).

5. خاتمة:

هكذا يتضح أن الاستيعاب الاستيمولوجي للمفاهيم والمصطلحات الغربية ومن ثم إخضاعها لتأصيل المنهجي الإسلامي، يعتبر مشروع مؤسساتي بامتياز، تلتقي حوله كفاءات علمية تجمع بين العلوم الانسانية والاجتماعية والشرعية، وظيفتها ضبط المفاهيم والمصطلحات الأجنبية المعربة بما يتفق مع أصولها، وفي الوقت ذاته، إيجاد البدائل الاصطلاحية بما يوافق أصول الشريعة (المنهج الأصولي المقاصدي العام) وكما جاء في مصادر ومراجع تراث العرب والمسلمين، القدامى أو المحدثين، وهذه مهمة حضارية، تضطلع بها مختلف المجامع اللغوية في تحليل كل معرب ودخيل وذلك بالتأكيد على معانيها ومقاصدها، وعلى خصوصياتها مقارنة بتلك الألفاظ الدخيلة، حيث تصاغ المفاهيم والمصطلحات الإسلامية عامة والسياسية خاصة - كما هو حال هذه الدراسة - ليس على منوال الصياغات والقوالب اللفظية الشكلية و لكنها صياغة شاملة، متكاملة، تأخذ في اعتبارها المنهجي الأصولي المقاصدي للرؤية الإسلامية و الذي لا يعترف بالفصل التعسفي بين اعتقاد وقول وعمل، بل يؤكد العلاقة العضوية بين أطراف هذه المعادلة بشكل مقاصدي أصيل ومبدع.

6. قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1. Collectif (1979), Dictionnaire de politique : le présent en question , Paris, librairie Larousse.
2. AFROUN Mahrez (2008), Mémoires d'outre — tombe, T II : Discours sur La société, Alger, éd. Houma.
3. LACOSTE Yves (1976), La géographie ça sert d'abord à faire la guerre, Paris, Librairie François Maspero.
4. AFROUN Mahrez (2007), Mémoires d'outre — tombe, T I : Chroniques d'une tragedie annoncée, Alger, éd. Houma.
5. Bennabi Malek, (2003), Colonisabilité : Problème de la civilisation (articles de presse réunis, choisis, annotés et préfacés par Abderrahman

Benamara, Alger, Dar El Hadhara.

6. القرآن الكريم (2008)، دمشق/ بيروت، دار اليمامة.
7. جبور عبد النور (ب. ت)، معجم عبد النور الحديث: عربي / فرنسي، بيروت، دار العلم للملايين.
8. البستاني، أفرام بطرس (1987)، منجد الطلاب، بيروت، دار الشروق.
9. ابن منظور الإفريقي (ب. ت)، لسان العرب، القاهرة، دار المعارف.
10. حسني غانم (1984)، "نحو نموذج إسلامي للنمو الاقتصادي"، مجلة أبحاث الاقتصاد الإسلامي، العدد الأول، جدة.
11. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل (1992)، "بناء المفاهيم الإسلامية السياسية ضرورة منهجية" ورقة بحثية مقدمة إلى المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي الموسوم: "المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية" الجزء الثاني: منهجية العلوم الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.
12. أمزيان محمد (1991)، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، سلسلة الرسائل الجامعية (4)، هرنند، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
13. علي شريعتي (2004)، النباهة والاستحمار، ترجمة هادي السيد ياسين، دراسة وتعليق عبد الرزاق الجبران، مراجعة حسين علي شعيب، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم.
14. داريني فتحي (ب. ت)، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، بيروت، مؤسسة الرسالة.
15. محمد البشير الإبراهيمي (ب. ت)، عيون البصائر، الجزائر، الشركة الجزائرية للتوزيع والنشر.
16. محمد حسين فضل الله (1986)، صراع الإسلام ضد الاستكبار العالمي، بيروت، لجنة مسجد الإمام الرضا.